قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة

بقلم د/الجيلالي سلطاني*

لم يحفل الشعر بأحداث تاريخنا الوطني مثلما حفل بحادثي فتح وهران الأول والثاني ، إذ انبرى الشعراء يسجلون هذين الحدثين العظيمين في قصائد وأراجيز أودعوها ما شاهدته أعينهم وما رأته أبصارهم . فكان ما دونوه غنيا بالأخبار يفيد الباحثين في تحقيقاتهم التاريخية.

وبعد الحلفاوي واحدا من هؤلاء الشعراء ، الذين أرخوا للفتح الأول لوهران ، فقد نظم أرجوزة من اثنين وسبعين بيتا أخبر فيها عن وقائع هذا الفتح ، وقد شرحها عبد الرحمان الجامعي . وما زال هذا الشرح مخطوطا لم ير النور بعد.

وقد آثرت في هذا البحث أن أقرأ أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران مستقلة عن شرح الجامعي ، رغبة مني في التعريف بهذا العمل الأدبي التاريخي ، وإماطة اللثام عن قالبه التعبيري في هذا الاتجاه . وإذ فضلت قراءة الأرجوزة مستقلة عن الشرح ، فذلك راجع لكون المقام لايتسع لذلك ، فتقديم المخطوط كاملا ، يتطلب قراءة مستفيضة لايتسع لها المجال ههنا . ثم إن تقديمها منفصلة عن الشرح ، حصر للموضوع وإلمام بجزئياته .

أولا :شارح الأرجوزة:

إن الحديث عن مؤلف هذه الأرجوزة ومحتواها يلزمنا أن نشير إلى شارحها الجامعي، الذي كان له الفضل في ذيوعها وانتشارها، أو لعله بهذا الشرح الذي أفاض فيه، قد رام من ورائه إبراز أهمية الأرجوزة وقيمتها التاريخية والفنية حتى يلفت الانتباه إليها و يوجه الأنظار حولها، شأنه في ذلك شأن

* قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر

ابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون في سقوط دولة بني الأفطس أيام ملوك الطوائف بالأندلس، لأننا كثيرا ما نقف على أسماء لقصائد وأراجيز مطولة، مذكورة في مصادرنا ولكن حينما نبحث عنها في كتب أخرى، فإننا لا نعثر إلا على القليل منها أو على أجزاء ونتف مبثوثة هنا وهناك. أريد أن أقول . بكل اختصار . أن شرح الجامعي للأرجوزة كان من الأسباب المباشرة التي حفظت لنا هذه المخطوطة إلى اليوم.

والجامعي في شرحه للأرجوزة، يلفت انتباهنا إلى أمر هام، وهو ذاك التواصل العلمي والثقافي بين أبناء المغرب الواحد في ذلك العصر، إذ رغم صعوبة الرحلة وقلة الإمكانيات، فقد كان التبادل الثقافي همزة وصل بين أبناء المنطقة، تحدوهم في ذلك الرغبة الشديدة في التعرف والاطلاع على نتاج العصر سواء أكان مغربيا أم جزائريا أم إفريقيا تونسيا.

والجامعي(1144هـ) كما ترجم له: هو الشيخ عبد الرحمن، أحد الجسور المهمة التي ربطت جامعة القرويين بجامعة الزيتونة، أديب علامة ممن رحلوا من فاس إلى تونس أواخر دولة المولى إسماعيل في الثلث الأول للقرن الثاني عشر، حيث تلقف العلم على جلة من العلماء القرويين، أمثال عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، ومحمد العراقي، وابن زاكور، والحسين بن رحال وغيرهم، وبعد تقوية معارفه عمل مدرسا في الزيتونة، وأحيى المدرسة الشنتمرية.

وللجامعي شاعرية نوه بها صاحب كتاب، " ذيل بشائر أهل الإيمان"[1]، وقال فيه محمد بن ميمون الجزائري في التحفة المرضية: الكاتب اللوذعي العالم الألمعي أبو زيد السيد عبد الرحمن بن عبد الله الجامعي نسبا، الفاسي منشأ، الجزائري دارا، وهو رجل وحيد الدهر، بل فريد العصر، لا أعلم أني لقيت مثله في طريق الآداب، ولا أشد كاهلا منه في الانتخاب، ولو أدركه الصاحب والبديع، لأخدا عنه كل معنى...صدر عنه الشعر المعجب إن لم نقل المعجز، والنظم الذي هو لو عد صدق براعته منجز. [2]

ثانيا :مؤلف الأرجوزة :

وأما مؤلف الأرجوزة، فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد الحلفاوي مفتي تلمسان وخطيبها، وصفه صاحب التحفة فقال: " رجل تقلد بالحضرة المذكورة الخطابة والتكلم في الإقراء والفتيا ، وبلغ من رياسة الديانة إلى الدرجة العليا، ووصل من إقبال القلوب عليه وميلها إليه إلى الغاية القصيا ، فرأس بها في الفقه واعتمد قوله في العلم وشوور في نوازل الحكم ، وقعد لتدريس الطلبة ، وقصد في أيامه المعتادة للوعظ ، وكتب على أسئلة الفتيا مغتبطا بهذا الرسم ، متلقيا وارداته المختلفة الأغراض بالطلاقة والبشر ، وهو من أهل الصلاح ، والسمت الحسن ، والتحلق ، والخصوصية ، والاقتصاد ، والتحفظ ، والورع. وقد ضرب ـ مع ذلك ـ في الأدب بسهمه. ومما اشتهر عنه من نظمه، الأرجوزة المشار إليها المنبه عليها " [3] .

وأما الجامعي شارح الأرجوزة فيقول فيه: " مفتي الحضرة التلمسانية لهذا الزمان، المشار إليه في البيان بالبنان، العالم العلم، قلم اللسان ولسان القلم ، شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد الحلفاوي التلمساني دارا ونسبا ، المالكي مذهبا ، أبقاه الله لتحقيق العلوم وإحياء الرسوم " [4] .

ثالثا : محتوى الأرجوزة :

تتألف الأرجوزة من اثنين وسبعين بيتا موزعة على خمسة فصول ، الفصل الأول في ذكر دولة محمد بن علي داي الجزائر القائم بتصرفات الدولة العثمانية المعروف ببكداش وفيه يقول : [5] .

لما أراد الله بالدّين جلا عن أرض وهران بني الكفر جلا

أحاد من حاد عن الخلافهْ فاستنهض فتى لها خلافهْ

أقامه محل من أقامهْ ولقضاء عنده أقامهْ

فكان خيرةً وخيرًا ومنى وجلْب نفع دائم ومأمنا

ومن عظيم لطفه بالناس سر خفي عن ذاكرٍ والناسي

فلم يكن فيه مجال للورى وإن تسلْ عن شرحه قل لا مرا
هو دولة الحبر محمد بكدشْ تاريخها طِبْقَ محمَّدْ بكْدش

والفصل الثاني في وصف تجهيزه للجيش لهذا الثغر وتوجهه إليه مع ذكر وزيره قائد الحملة وتاريخ النزول ، وذكره أيضا الأسلحة المستعملة في هذا الفتح ومن ذلك قوله [6] :

مجهْزًا جيشًا حمى الدين فَسادْ إذ ظهرتْ به بقاعٌ من فسادْ
فنهضوا لله حزمًا وأَعـدْ معهم آلـة حدبٍ لا تُعَدْ
من نحو بارود وكمْ من مدفعِ ومنجنيقٍ ماله من مدفع
مؤمرا صهرهُ " أوزن حسنَا " قرما رضي فسار يسرا حسنا
...فنزلوا الأوَّل من ربيع النبوي منسلخَ الرَّبيـع

والفصل الثالث ، في محاصرة البلاد والبروج والحصون والقلاع ونحوها ، وهذا الفصل هو واسطة الفصول لكون الشاعر ركز عليه وعلى وصف الحصار والدخول في المعركة والنزال ، وذكر برج العيون كبرج مرجاجُ وبرج بن زَهْوٍ وبرج العيون وغيرهم [7].

فأجمع الجيش بذال الثغر جمعا كبنيان رسى أو ثغر
ونصبت من حولها مدافع للرمي كل أسد مدافع
ومرعدات كورها في الجو كنجم رجم من سماء يهوي
تلمح من خلالها البوارق ووقعها أمضى من الصواعق
فأجحوا نار الحروب سرمدا وتابعوها باعتنا طول المدى

وعن الفتح يقول [8]):

فكان باكورة ذاك الفتح برج العيون ضامنا للنجح

عاشر يوم من جمادى الأخرى يوم الثلاثاء مساء قسرا

قلعة مرجاجو التي لو قلعت شوامخ الأطواد ما تضعضعت

وإذ دعاها الله للإسلام ألقت له القياد باستسلام

فأصبحت ترمي العدا بالكور سابع عشرين من المذكور

وانحدروا لبرج ((بن زهو)) وقد حل به من نار حرب قد وقد

..فأصبحوا خامس شعبان به كقتل شعبان نصيح **ربه**

من بعد لغم هد جل حرفه وحصرهم به بنقط حرفه

ثم أتى الجيش لوهران ولم يك مقاتل بها إلا ألم

وبـ ((الجديد)) برجها الحامي لها لم تغن آلات به حاملها

ففتحا يوم العروبة معا فتحا أرى في الأندلس مطمعا

والفصل الرابع في وصف ما آل إليه المسلمون الفاتحون والأسبان المطرودون وما افترقت عليه كلا الطائفتين ، يقول الحلفاوي [9] :

وانكسرت شوكة من بالكفر يلوذ أو له اعتنى بأمر

ومزقوا تمزيق آلاء سبا وأصبحوا ما بين قتل وسبا

وأخرجوا بالذل للإسار في عدد ((كفر صغار)) ساري

وانقرضت دولة ذي الفساق والملك لله القديم الباقي

وانتصف الإسلام منهم وغدا بين قتيل ذي حياة أبدا

وأفرد الحلفاوي الفصل الخامس والأخير للثناء على المولى تبارك وتعالى والصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين ومن الفصل قوله [10] :

والحمد لله على إعلائه كلمة التوحيد في ملائه

مصليا على الذي به الهدى أوضحه الله إلينا وهدى

محمد سيد كل ضارب أو طاعن من قاطن أو ضارب

وآله وصحبه الأنجاد أسد الشرى في الحق والجهاد

ونشير إلى أن الجامعي شارح الأرجوزة نظم خمسة أبيات من نفس البحر وأضافها إلى الأرجوزة بعد البيت السادس والستين ، معتبرا الحلفاوي قد قصر في نظم هذه الأرجوزة وكان من حقه . كما يقول . أن يركبها من ستة فصول يمدح في السادس الإمام العثماني الذي وقع هذا الفتح في أيامه السعيدة "[11] .

ومن إضافته قوله [12] :

وكان ذا في دولة الإمام فخر ملوك ضابط الإسلام

... أحمد خافان الهمام المرتضى بسيفِ الإله في الأعادي المنتضى

خامسا . القيمة التاريخية والأدبية للأرجوزة :

تدرج أرجوزة الحلفاوي ضمن التاريخ المحلي ، الذي يتناول جهة معينة أو ناحية خاصة من نواحي القطر الجزائري أو حادثة جرت فيه ، ومثل هذه الأرجوزة وأشباهها لا يمكن أن نعدها من التاريخ العام أو الشامل الذي يتناول الظواهر التاريخية التي حدثت في منطقة واسعة أو فترة طويلة .

والحلفاوي إذ يؤرخ لفتح الثغر الوهراني الأول ، فهو يؤرخ لفتح وهران وأبراجها المعروفة ، وهو بالتالي يدون أحداث هذه الناحية ، يضاف إلى ذلك أن الناظم يؤرخ لوهران من خلال الأمير محمد بن علي داي الجزائر المعروف ببكداش .

والحلفاوي لم ينفرد بهذا الاتجاه التاريخي لوحده أو أنه اختص به دون غيره ، فهو اتجاه ومذهب عرف به المؤرخون الجزائريون الذين أهملوا التاريخ العام واعتبروه ضربا من السخرية والاستهزاء كما يذكر الورتلاني .

والحلفاوي . أيضا . كغيره من أهل عصره ، قفد كان أساس التأليف التاريخي عنده هو الأدب بل الشعر ، الذي يتحكم فيه الوزن وتقيده القافية .

وإذا قلنا بأن أرجوزتة تدرج ضمن ما يسمى بتاريخ النواحي ، فإننا نعتبرها وثيقة تاريخية لها أهمتها الخاصة وفائدتها العامة ، من حيث وصف تجهيزات الجيش واستعداده ، وتاريخ النزول ، والإخبار عن الأسلحة المستعملة ، وتفاصيل الحصار والمعركة ومراحل الهجوم على مدينة وهران وأبراجها وتاريخ الفتح .

وأما من حيث قيمتها الأدبية : فإنه لايخفى على أحد ، أن الأراجيز أو المنظومات الشعرية ، لا ترقى إلى مستوى القصائد المطولة أو المقطعات الشعرية ، خصوصا ما تعلق منها بالخيال والموهبة ، ذلك أن الشاعر في قصائده يختار الوزن والقافية الذين تتماشى وموضوع غرضه ، فيجد فسحة في الكلام وسماحة في التعبير، ويختار من اللفظ ما يناسب معناه .. إلخ ، لكن الراجز أو الناظم ، يجد نفسه مقيدا بالحادثة التاريخية ، ملزما بذكر تاريخها ، وبتوظيف كل ما يرتبط بها من أخبار وأوصاف تتعلق بالأشخاص والأمكنة ومسميات الأسلحة وغيرها ، والتي يجد فيها صعوبة في خضعها للعروض والموسيقى الشعرية .

والحق إذا قلنا أن الأراجيز لا ترق إلى مستوى ما ذكرناه ، ونحن بصدد الحديث عن أرجوزة الحلفاوي ، فليس معنى ذلك أنها تخلو من المتعة الأدبية والفنية ، ولعل أرجوزة صاحبنا في هذا المجال تعتبر ذخيرة تاريخية وأدبية ، فهي كما ذكرت تتألف من اثنين وسبعين بيتا ، جمع فيها بين الأدب والتاريخ والحقيقة والخيال ، وهي كما قال الجامعي شارح الأرجوزة ، جاءت وافية بالمرغوب كافية للطالب ، بتوفية المطلوب إلى ما احتوت عليه من المعاني البيانية والأنواع البديعية من تجنيسات رائقة وتشبيهات فائقة .

فهذه شهادة شارح الأرجوزةتِ ؤكد قيمتها الموضوعية والأسلوبية ، يضاف إلى ذلك أن هذه الأرجوزة لفتت انتباه الكثير من الشعراء فنظموا على منوالها وكتبوا في الحادثة نفسها ، وعلى رأسهم الجامعي الذي شرحها فنظم في البدء خمسة أبيات أضافها إلى الأرجوزة ، ثم أضاف أثناء الشرح قصائد ومقطعات في الموضوع نفسه .

ومن الشعراء الآخرين الذين نظموا أشعارهم في هذا الفتح ، أحمد الفيلالي الذي يقول عنه الجامعي في مقدمة شرحه ، وقد تعرض للتأليف في هذا المعنى أبو العباس السيد أحمد الفيلالي المقرى التلمساني .... واعتنى بتدين هذا الفتح الكريم ، وأبو عبد الله محمد حفيد العلامة الجزائري التي نظمها سنة 1114 ، وأبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري ، كان معاصرا لمحمد بن ميمون صاحب التحفة ، وغيرهم كثير وقد ذكرهم الدكتور محمد بن ميمون الجزائري في مقدمة تحقيقه للتحفة المرضية .

وخلاصة القول فإن أرجوزة الحلفاوي تعتبر مرجعا تاريخيا وأدبيا لهذا الفتح يستفيد منه المؤرخون والأدباء على حد سواء .

المصادر والمراجع:

1 . جامع القرويين ، المجلد الثالث، تأليف الدكتور عبد الهادي التازي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1972م، ص: 222 – 223.

2 . التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، محمد بن ميمون الجزائري، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، بدون طبعة، ص: 145 – وما بعدها.

3. المصدر نفسه ص: 249 .

4. المخطوط: الورقة 3، وهو مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، مسجل تحت رقم: 2521.

5. المخطوط: الورقة 4، 10، 12، 15.

6. المخطوط: الورقة 27، 28، 32.

7. المخطوط: الورقة 32، 34.

8. المخطوط: الورقة 25، 28، 40، 43.

9. المخطوط: الورقة .56

10. المخطوط: الورقة .57

11. المخطوط: الورقة 3.